

العيوب الصغيرة

ألقيت هذه المحاضرة النفسية في جامعة
نوادير أول بدعوة من نقابة خريجي
الجامعة

الحاضرة صاحب العزة الأستاذ أنطون
الجنيل بك رئيس تحرير "الاهرام"
عضو مجلس الشيوخ

تفضلت نقابة خريجي الجامعة فدعنتني إلى الاشتراك بمحاضرة في موسمها الثقافي. ثم طلبت إلى في آب من مجلس إدارتها أن أحدد موضوع حديثي ، وقد جاء في هذا الكتاب أن الغرض من إقامة هذا الموسم هو "المساهمة في النهضة الثقافية والدعوة الإصلاحية ، رغبة في بث الروح الوطني الشاب ، وإشاعة الفكر العلي ، إجلالاً للعلو ، وتوجيهاً للشباب نحو رسالته السامية".

رسالة الشباب السامية ؟ . . وهل للشباب رسالة أسمى من السعى وراء الكمال ؟

المثل العليا ؟ . . وهل من مثل أعلى يتطلع إليه شباننا النجباء أشرف من استكمال الفضائل في الفرد والمجموع .

الروح الوطني الشاب ؟ . . وهل من وطنية أصدق وأنجع من التغلب على النقائص والعيوب وإن كانت صغيرة ؟ نص دستورنا على أن "جميع السلطات مصدرها الأمة" ، وهذا ما يجب أن يكون ، وهذا ما هو كائن في كل أمة راقية ، وهو لا شك حق الأمم الناجحة ومفخرة البلدان الديمقراطية . ولكن هذه المفخرة وذلك الحق يقابلهما واجبات ومسئوليات ، فلا بد من أن يتحلى أفراد الأمة بالفضائل التي تؤهلهم لأن يكونوا مصدر السلطات . وهذا واجب الرجال المثقفين تنقيفاً عالياً قبل الذين لم ينالوا من الثقافة إلا طقاًوات يسيرة .

هذا ما جال بخاطري عند ما تلقيت كتاب هذه النقابة الناهضة وعند ما تحدث إلى بعض أفرادها عن أغراضها . فذكرت حينئذ أنني دعيت منذ مدة إلى الخطابة في أحد المعاهد العلمية حيث جعلت مدار خطابي على : "الفضائل الصغيرة" . ثم رأيت أنني لن أستوفي الموضوع إلا إذا تناولت بالبحث : "العيوب الصغيرة" وصرت من ذلك اليوم أرقب الفرصة المناسبة لطرق هذا الموضوع إلى أن دعيت إلى المساهمة في هذا "الموسم الثقافي" فرأيتها الفرصة المواتية .

وما هي "الثقافة" التي أحسنتم ، يا اخواني ، إذ نسبتم اليها موسمكم الموفق ؟
 انها بمعناها المجازي — كما تعرفون — تهذيب الولد وتأديبه ، ومعناها الحقيقي تسوية
 الرمح وتقويمه . أرسلتم يافتيان الأمة المثقفين رماحها المشرعة وسيوفها المسانحة ؟ ألا ينبغي
 أن تكون هذه الرماح والسيوف دائما أبدا ماضية الحد ، صقيلة النصل ، سليمة من كل
 شائبة .

وأذكر أيضا أنني قلت في محاضرتي عن "الفضائل الصغيرة" ما خلاصته أن ظروف
 الحياة لا تهيئ لكل إنسان مزاولة الفضائل الكبيرة ليكون في وفاء السموم ، وعدل ابن الخطاب ،
 وشهادة صلاح الدين . ولكن ظروف الحياة تهيئ دائما ، ولكل منا ، وفي كل يوم من أيام
 حياته ، أن يكون نبيا لأصدقائه ، عادلا في أحكامه ، أميناً في أعماله . .

أيها السادة : إن شأننا كذلك بين الكجائر والصغائر من العيوب والنقائص . ولا ريب
 في أن يبحث عيوبنا الصغيرة يهود علينا بفائدة أقرب وأشمل من بحث الكبيرة منها ، وإن
 كان من الصعب السير أن نقيم حدا فاصلا بين هذه وتلك ، فتجزم متى تكون من العيوب
 البسيطة العرضية ، ومتى تصبح من الفواحش وكجائر الاثم .

وفي الراقع ليس بيننا من يقتل أو يسرق أو يخون وطنه بالمعنى الحقيقي للقتل والسرقة
 والخيانة . أما بالمعنى المجازي فكم بيننا من قتلة ولصوص وخونة . فقد نقتل ، وقد نسرق ،
 وقد نخون ، كل يوم ، باللسان ، بل بالإشارة ، بل بالقلب والفكر . وربما كان أحيانا
 فعل هذه العيوب الصغيرة بعيد النتائج خطير العواقب ، كفعل الكجائر . ومع ذلك قد اعتدنا ،
 تساهلا مع أنفسنا ، أن نسمى هذه العيوب شهوات أو حقوق أو هبات هيئات ، وإن
 هي في الغالب إلا مآثم وجناريات .

يفتن الإنسان في اختلاق الأعذار والمبررات لعيوبه ، فيقول وقد لبس لبوس الأتقياء
 المتواضعين "إن الكمال لله ! " وهذا صحيح . ولكن الله يأمرنا بأن نسعى إلى الكمال ، بل
 إن الحياة المثلى هي من أولها إلى آخرها سعى متواصل وتطلع دائم إلى هذا الكمال ، فالإنسان
 كما قال ديكرارت "كائن ناقص يجب أن يتطلع دائما إلى ما هو أفضل وأسمى" .

الكمال لله وحده ، وقول حق يراد به باطل ، لأننا نقوله على سبيل التواضع الكاذب الذي
 يستر نوعا من الكبرياء الخبيثة ، فإن كثيرين يشكون مما كتب . لله لهم في هذه الحياة من رزق
 وحظ وتوفيق ، ولكن الجميع يمدون الله ويشكرونه على ما أعقد عليهم من فطنة وذكاء وكمال .

ومن مظاهر هذا التواضع التقليدي أن كل مؤلف في القرن الماضي كان يرى لزاما
 عليه ، مقدمة كتابة ، إن يخاطب القارئ بقول الشاعر :

إن تجد عيبا فسد الحلالا جل من لا عيب فيه وعلا

نعم إن الاعتراف بعيوبنا تواضع ، ومكاشفة أصدقائنا بها ثقة واستجداد ، ولكن إعلانها على الناس كبرياء .

فالواجب إذن على العاقل أن يخفى على نفسه ليصلح عيوبها وتقاتلها ، لا ليحاول أن يسدل عليها ستارا شفافا من التواضع المهلول ، وهو يتقدها وهما أنه بذلك يحجبها عن عيون الناس ، أو أنه يدفعهم إلى الأقل إلى اغتفارها له .

أما الرجل الذي يفحص نفسه ولا يجد فيها عيبا فهو من غريب من الوجوه الأدبية في حالة مرضية .

حكى عن المذلل الدنركي " نور والدسن " أن أحد أصدقائه دخل إليه يوما في مثله ، فوجده يبكي ويتحبب أمام آخر تمثال خرج من بين يديه ، فلما سأله الصديق عن سبب بكائه قال : " إنى أحرق في هذا التمثال منذ ساعة ولا أجد فيه عيبا ، وهذا دليل قاطع على حمل تفكيرى ونحوه قريحى ... "

أيها السادة : ما أبعد البون بين هذا الفنان العبقري والرجل الذي يمتلكه الغرور حتى لا يرى عيوبه فيخال نفسه في أوج الكمال ، وما الغرور سوى طابع النفوس الضعيفة الفقيرة إلى الفضائل الصحيحة ، وقد يدرج بين العيوب الصغيرة ولكنه كسائر العيوب الصغيرة كثير العواقب الخطيرة .

الشاب المغرور يكفيه في مطلع حياته أن يصعد إلى خشبة مسرح الحياة لكي يتوهم أنه الممثل الأول . والموظف المغرور بمنصبه يدل على أنه أقل من هذا المنصب . والغنى المغرور بملبسه وبمركبته إنما يرجع كل فضل فيه إلى خائض النياب وسائق السيارة .

إذا أردتم أن تعرفوا حقيقة امرئ ، زدوه بسلطة واسمعة ، أو انظروا إليه ، وقد أقيمت الدنيا عليه ، كيف يشمخ بأنفه ، ويصعق خذه ويمشى في الأرض مرحا ، وفاته أن حديث النعمة إذا نسي أصله ذكراه ، وإذا ذكره نسيناه .

والغرور يولد في صدر صاحبه الخيلاء والاعجاب بالنفس ، ومن يهيج بنفسه لا يعجب أحدا ، فلا يلبث أن يحمله الغرور على استجداء المدح ، في حين أنه يجب أن نستحق المدح ونهرب منه ، قل أبو تمام ؛

متبذل في النوم وهو مبجل متواضع في الحى وهو معظم

فاذا شئت أن يقول الناس فيك خيرا فلا تقله أنت ، ولكن المغرور المعجب بنفسه يجعل جميع ما قد يكون فيه من صفات ومزايا عرضة للبحث والتحجيص ، لأن الناس يابون

عليه أن يكون فيه مع الغرور أى صفة أو فضل ، فهو كالتاوس ينفش ريش ذيله حتى يكاد يجعل منه ناجا ، ولكنه يكشف عن أقيح ما فيه ، والله درهميار حيث يقول :

يطلب المدح لكي يفضحه وهو قبل المدح مستور العيوب

وهذا العيب فى الإنسان يولد عيبا آخر فى من حوله ، وهو الملق أو الترفل أو المدح الكاذب ، وما المدح الكاذب كما قال لاروشفوكو "سوى نقد زائف لا يرتجعه إلا غرورنا" ، ولقد صدق من قال "إن المدح الكاذب يشبه ظلك : يمتد حينما فتبدو طويلا ، وينقلص حينما فتبدو صغيرا ، ولكنه فى الحقيقة لا يزيد قامتك طويلا ولا قصرها".

على أنه ليس من الغرور فى شىء أن يقدر المرء نفسه حق قدرها فيحفظ بكرامتها ويضن بمنزلتها ، وإذا كانت كثرة الإعجاب بالنفس بخافة فإن قلبه ضعف ووهن ، فليس من وسيلة إلى أن تصبح حقيرا أقرب من أن تحال نفسك حقيرا .

وليس من الغرور فى شىء أيضا أن نعتبط باحترام أهل الفضل لنا وثنائهم علينا ، فإن من لا يكثر بمثل هذا الثناء وذلك الاحترام كذاب فى تواضعه ، خبيث فى زهده ، بالغ أقصى غاية فى غروره .

ومن العيوب التى تمت إلى الغرور بأكثر من سبب ، التبرم وكثرة الشكوى وعدم رضى المرء عن حالته وعن الناس أجمعين ، فهو دائما أبدا ناغم على الدنيا ، متبرم بالناس ، لأن الدنيا لم تسعفه ، والناس لم تنصفه ؛

• نيب زماننا واليب فينا وما زماننا عيب سوانا

فهو دائم الشكوى من الظروف والملابسات ، ومن الدهر الظلم :

الدهر لا يدري بما هو كائن فيه ، فكيف يلام فيما كانا
نشكو الزمان ، وما أتى بجنابة ولو استطاع تكلمنا لشكنا

واستمرار الشكوى يعكر المزاج . ولكن المزاج العكر لا يغير مجرى الحوادث ولا طبيعة الأشياء التى لا تهتم لنا . وأفضل من التذمر والشكوى إذا كنا أمام عمل لا يسرنا ولا يروقنا أن نقبل عليه هادئين راضين ، فتقلب على الموقف فلا نسهم حياتنا . فإن أماننا من الآلام الحقيقية ما يفيتنا عن اصطناع آلام وهمية . وصفوة القول إن المتذمر الشاكي متعب ، متعب فى معاملته ، مزعج ، مزعج فى صداقته .

ولما كانت العيوب سلسلة متأسكة الحلقات فإن هذين العيين ناشتان فى الغالب عن الأناية والإفراط فى حب الذات . وهو عيب قد تفسى وانتشر ، حتى أصبح خطرا وأى خطرا !

يقول علماء النفس إن في طبيعة الانسان عاملين أو حافزين متناقضين : حبه ذاته أو الأناية التي تدفعه الى حصر همه في نفسه ، وحبه غيره أو الغيرية التي تدفعه الى الانصراف بكل همه الى الغير . فإذ تلاشى العامل الأول صار الانسان كريما الى حد الاسراف والجنون وإذا تلاشى العامل الآخر صار الانسان شريرا الى حد الضرر والاجرام .

فانحجب ذاتنا ، ولنحجب سوانا ، فنطلب الخير لأنفسنا ، ونطلبه لسواها .

والذي يحصر همه في دائرة ضيقة من الصداقات والعلاقات ، لا يلبث أن ينتهي به الأمر الى الخطأ الفاضح في أحكامه وآرائه ، بل الى البغض والحقد في ميوله وعواطفه . فيجب أن نخرج من دائرتنا الضيقة لننظر الى الأفق التوسيع ، فنفهم آراء غيرنا وفضائلهم ، أفرادا كانوا أم جماعات ، احرابا أم طوائف ، مهما تختلف الميول والمذاهب . وإذا خرجنا من دائرتنا الضيقة ينبغي ألا نطالب الناس بالكمال المطلق .

أنتطلب صاحبنا لا عيب فيه وأنت لكل ما تهوى ركوب

ومتي طالت شكوى الانسان من حالته ومما يحقدق به لا تلبث أن تولد في نفسه شيئا من الضغينة والحسد . وقد يكون الحسدا كثر العيوب الصغيرة محاولة للتستر والاختباء ، كأنه يجعل من نفسه ويستحي من السفور ، فيدب في منى الكتمان وهو كالمم ينهش القلب بل هو " كالنار تأكل بعضها ان لم تجد ما تأكله " .

ولا شك في أن أنجع وسيلة للشفاء من هذا المرض النفسى أن نساق من نحسده في ميدان الفضل ، وننافس في مكارم الأخلاق ، كما أن أحسن طريقة لتلاجمل الضغينة لمن أساء الينا ، أو تصورنا أنه أساء الينا ، ولتلا نعتقد عليه ، ولتلا نحاول الانتقام منه ، أن نحسن نحن اليه ، فإذا كان هو غير جدير باحساننا فإن هذا الإحسان يكسبنا راحة واطمئنانا أما اذا حصرنا همنا في طلب الانتقام ممن أساء الينا فإنا نكون قد عملنا على التشبه به ، ونحن بالعفو أفضل منه .

ويقول كثيرون إن الاحتقار والإعراض لما يقضى على الحامدين الخاقدين المبغضين ، ولكن الهو والاحسان أفضل في القضاء عليهم ، جربوا تعرفوا ، وتشعروا براحة واطمئنان كان المأمون يقول : " ان الله لا يثيبني على العفو لأني أحبه " .

ويخطئ من يزعم أن من لا يبغض لا يحب ، ومن لا يحقد لا يعفو ، ومن قال ذلك كأنه قال إن من لا يجبن لا يشجع ، ومن لا يسرق لا يعف ، وكأنه ليس من فضيلة تزينا إلا ويقابلها رذيلة تشيننا .

وهناك عيب من العيوب الصغيرة الكثيرة الشيوع ، وهو الغضب أو حدة المزاج ، وقد عرف علماء النفس الغضب بأنه جنون قصير المدى ، ونحن نقول " سورة " الغضب

كما نقول "سورة" الخمر ، لأن الغضب يشبه السكر فيذهب بالعقل الى حين ، فيكشف العيوب ويفضح الأسرار ، وفي النهاية يورث الندم ، ويكفى لكي تتركه الغضب أن تنظر الى الغضبان ، كما تتركه السكر اذا نظرت الى السكران .

وإذا أثارك كلمة أو استفذك حادث إلى الغضب فالأجدر بك ألا تقول ولا تكتب شيئا إلا متى سكنت سورة غضبك ، فإن حكماك على الأشخاص والحوادث يتغير ، وقد ينقلب الى النقيض بعد ساعات أو بعد دقائق .

وإذا كان الغضب مكروها في ذاته ، فإنه يصبح سخيفا مضحكا إذا تحول الى الأشياء : يستعصى علينا الزر عند لبس القميص فتغضب وقد نقتطعه ، ويتماد علينا المفتاح عند فتح الباب فتغتاظ منه وقد تكسره ، وتعثر رجلنا في الطريق فيحرق عليه وقد نرقسه . والزر والمفتاح والحجر جوامد صماء لا تنبالي غضبا وغيظنا وحنقنا ولا يؤثر فيها عنادنا .

والعناد من عيوبنا الصغيرة ، وهو قوة النفوس الضعيفة الصغيرة . ولا نتوهم أن العناد يمت بصلة قريبة أو بعيدة الى الثبات على المبدأ والحق ، أو الى التسك بالقانون والنظام ، بل هو في الغالب التثبيت بالرأى الخاطيء عن معرفة . وكثيرا ما يتحول في المناقشة الى مغالطة ومكابرة ، فتكون هزيمة المعاند في آخر الأمر منجاة مزرية ، وإذا كان على صواب كان عناده مقصبا من فضله . وكمن مرة جعل العناد صوابنا خطأ .

أيها السادة : إن من استسلم الى هذه العيوب التي ذكرنا يصبح فضوليا ، أي أنه يهتم بما لا يهنيه من شؤون الناس ، فيحاول بجميع الوسائل معرفة أخبارهم ، بل الكشف عن خبايا صدورهم للاطلاع على أسرارهم . وكثيرا ما لا يتورع عن التلصص والتجسس لاستراق هذه الأسرار بالاستماع من وراء الأبواب ، والتطلع من النوافذ ، ونجح المكاتبات الخاصة . ومتى ظل المفضول في دائرة توافه الأمر كان سخافة وسماجة ، ولكنه إذا امتد الى المسائل الخطيرة أضحي شرا محقق الضرر . وعلى كل فهو عادة عيب من لا يعرف كيف يشغل نفسه بشؤونها فيشغلها بشؤون غيره .

أما إذا قادنا الفضول الى معرفة كل ما يقوله عنا الناس ، ولا بد من أن يقودنا الى ذلك ، فالتا نعيش منغصين منكدين ، لأن هذا الفضول يولد الشك والقلق . فإذا لم يتيسر لنا معرفة ما يحول في خواطر الناس حاولنا أن نكشفه عن طريق الحدس والتخمين والشك . والانيان بطبيعته لا يريد أولا يجب أن يكون مخطئا في تخمينه ، فيتزع الى أن يحول شكه يقينا ، وحدثه حقا ، وتخمينه أمرا واقعا ، فيثور ويغضب . ولما كنا بطبيعتنا كذلك لا نريد أو لا نحب أن يكون غضبنا تجنيا ، ونثورنا ظمنا ، فإنا نحاول أن نبرر هذا الغضب وهذه الثورة . فيبدأ غضبنا بمادة خيالات وأوهام ، ثم يصير الى مداوة الحقائق والأجسام

وهكذا نرى شغف الفضولى بمعرفة ما لا يعنيه يفضى به الى سوء الظن ، وبعض الظن اثم ، ويتهى به أخيرا الى الاساءة الى نفسه شر اساءة .

والصلة وثيقة بين الفضولى والثرار . فالأول ولوع بأن يعرف أخبار الناس . والثانى ولوع بأن يعرف الناس بأخبار الناس . هم الأول استراق الأخبار والأسرار ، وهم الثانى نشر الأخبار وإذاعة الأسرار . ولما كان السر وديعة فافشاء السرخاية للثقة .

والثرثار لا يتورع عن الاختلاق ، والمسافة قريبة جدا بينه وبين الكذب والتميمة والاعتياب ، فيتحول لسان الثرثار من حيث يدرى ولا يدرى الى أنمى تنفث سمها الزفاف يمينا وشمالا فى الناس وسمعتهم وأعراضهم . وقد وصف الشاعر طائفة الكذابين المغتابين أحسن وصف إذ قال :

ان يسمعوا الخبير مخفوه ، وان سمعوا شرا أذاعوا ، وإن لم يسمعوا كذبوا
ومن المعروف أن كلمة سوء تكبر وتتضخم بانتقالها من فم الى فم ، بل قد يروى الواحد منا خبرا يتحفظ واحتياط فيمهد له " بقدر وربما ويظن ويقال " ولا يلبث أن يعود هذا الخبر فيروى له بصيغة الجزم والتأكيد القاطع .

وهناك عيب صغير كثير الشروع ، وقد يبدو فى أول أمره لطيفا خفيفا محببا الى القلوب ، ولكن ما أسهل ما ينقلب ثقيلًا كرها ، وهو المزاح .

فاللطيف من الممازحة يفكه النفس ويسرى عن الخاطر ، فيعرف الممازح الظريف اللبيق أن يجعل مزاحه مزيجًا من المدح والتقد ، فلا يشير الى عيب صغير فى من يمازحه إلا ليظهر فيه فضيلة كبيرة ، وإلا انقلب الممازح بين الاخوان استهزاء يذهب بالصفاء ، ويخترية تقطع الإخاء ، ودل تعتقد أننا بلا عيب حتى نسخر من عيوب الناس ؟
قال الشاعر :

أفد طبعك المكدود بالهم راحة قليلا وعلله بشئ من المزمح
ولكن إذا أعطيته المزمح فليكن بمقدار ما تعطى الطعام من الملمح

فإذا مازحنا اخواننا وأصدقاءنا وجب أن نحصر على ألا نجرحهم فى عواطفهم وعقائدهم وإلا كان المزاح إهانة ، وألا نعرض بعاهاتهم وعيوبهم الجسمية وإلا كان الممازح غلظة وخسة .

قرأت لأحد حكماء العرب : " ينشق أحدكم أخاه مثل الجردل ، ويفرغ عليه مثل المرجل ، ويرميه بمثل الجندل ، ثم يقول : إنما كنت أزمح ... " .

أما الممازح المنتظف ، أو الظريف المتصنع ، فلا شك فى أنه أثقل من الجندل ، بل أثقل من الجبل .

وهناك عيب آخر ربما صح إهمال ذكره بين العيوب لولا ما يجري اليه من العواقب ، وهو ما أسماه الحياء البشرى . فيحمانا هذا العيب الصغير على الجبل من حقيقة أمرنا . ثم يدفنا الى الاهتمام بما يعتقد الناس فينا ، فنقتضى وقتنا في البحث عن آرائهم في أعمالنا وأفعالنا ، بدلا من أن تمضيه في إجادة هذه الأعمال . وقد قال أحد الظرفاء : كثرة الحياء مع الناس قلة حياء مع النفس .

ومتى وصل بنا هذا الحياء الى الإحجام في قول الحقيقة أصبح نوعا من المداورة : نريد شيئا فنحوم حوله ولا نذكره . ونطلب أمرا من الأمور الجائزة فنسعى الى الحصول عليه بطرق ملتوية . وقد يكون المداور مستقيا ولكننا على كل حال نتحاشى معاملته .

ويا ليت الحياء يقف عند هذا الحد ، ولكنه يتطوّر ويتكيف حتى يصير مجاملة . ونحن مغطورون على المجاملة والمصانعة . قال شاعرنا العربي :

ومن لم يصانع في أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمذم

نحن نجامل ونصانع في شتى الأمور ، وإن لم يكن هناك خوف من أياب ولا مذم . بل كثيرا ما نكذب من باب المجاملة فنقع في مشكلات معقدة كان يغتينا عنها شيء من الصراحة ، كان نعرف مثلا أن نقول "لا" وكما كانت المجاملة أخصر طريق الى المداينة والتدليس والنفاق .

أيها السادة : هذه العيوب ، مهما نصغر من شأنها ومهما نتعتها تجوزا بالصغيرة — هي عظيمة الأثر في طباع الانسان وأخلاقه فتفعل فيه فعل السوم في الخشب ، بل فعل النار في الحطب . وقبل أن تعصف بها عصفا تورثه ضعفا في الارادة وخورا في العزيمة فتقعد همته ، وتضع ثقته بنفسه ، وتدفع به الى التواكل والامتدلام .

وقد يكون التواكل من الصق عيوبنا بنا : ينشأ ويتدرج معنا ، فالطفل والشاب والرجل ، كل منا ، يألف الإهمال والانتكال على غيره في قضاء أقرب الحاجات الى نفسه ، مع أن شاعرنا العربي قد أشاد بفضل الاعتماد على النفس :

وانما رجل الدنيا وواحدنا من لا يعول في الدنيا على رجل

والرجل المتواكل المتردد يضع أيامه مدى ، لأنه يقضى زما طويلا بين الرغبة والارادة ، وبين الارادة والاعتزام ، وبين الاعتزام واختيار الوسيلة ، وبين اختيار الوسيلة والتموض لتنفيذها . فينق حياتاه واقفا مترددا بين طريقين لا يعرف أيهما يختار .

والتواكل والكسل عيان متلازمان ، بل شقيقان توأمان ولا يورثان إلا ضياع الوقت ، والوقت الذي يقدره الغربيون بأثمان المعادن ، لا يساوى في نظر بعضنا حفنة من التراب ،

في حين أننا مستطيعون أن نعوض كل خسارة مادية ولسنا بمستطيعين أن نعوض ساعة واحدة من الساعات التي ننفقها من حياتنا بلا حساب .

نحاول ، كما نقول ، أن تقتل الوقت وننسى أن من يريد أن يقتل الوقت ، قتله الوقت . نحن لا نحب شيئا فوق حيننا الحياة ، ولكننا لا نسرف في شيء ، امرافنا في مادة الحياة . والحياة لحظة خاطفة ، ولكن الانسان المجتهد يستطيع في هذه اللحظة الخاطفة أن ينجز أعمالا خالدة .

فنروض أنفسنا على القول في صباح كل يوم ، ليست الحياة يوم عيد ، ولا يوم ماتم ، بل الحياة يوم عمل :

إذا مرّ بي يوم ولم استفذ يدا ولم أكتب علما فما ذاك من عمري سيداتي :

لم أتناول في عرضي هذا عيوباً خاصة بكن ، لأن عيوبكن ، هي عيوبنا ، وإن كان بعضها أبرز في الرجل ، والبعض الآخر اظهر في المرأة .

ولكنني أتول إن المرأة إذا أصبحت نفسها قد تكون أنجع وسيلة لإصلاح الرجل . فأتين يا سيداتي خير معوان لنا على اصلاح أنفسنا واستكمال فضايلنا .

وهناك عيب من العيوب الصغيرة كنت أرجو ألا أكون قد وقعت فيه هذا المساء ، وهو حب الوعظ والإرشاد . ولكنني أعترف أني لم أفطن له إلا عندما وصلت أمس الى هذا الحد من كتابة محاضرتي . فهاذ في غمرة قدوري لإصلاحه إلا إذا طوت محاضرتي ، وربما كان الطي أفضل من النشر ، ولكنه لم يكن بالأمر الممكن ولا الجائز بعد أن تلقيت دعوة هذه الندوة الناهضة لاستماع هذا الحديث ، غير أن شفيعي لديكم إحلاص الندوة وحسن القصد ، فتفتفرون لي هذا العيب وغيره مما بنا لكم في كلامي من عيب أو نقص . ويكاد يأخذني أنا أيضا شيء من التواضع الكذاب الذي أشرت اليه في مطلع محاضرتي فأقول بدوري :

إن تجد عيبا فسد الخلالا جل من لاعيب فيه وعلا

أيها السادة : عرضت عرضا سريعا لطائفة من العيوب أو النقائص التي ترتكبها كل يوم ، ونحاول تبريرها بوصفها بالصغيرة ، وما هي في الواقع بالصغيرة ، قد يكون في قانون العقوبات تفاوت بين الكبائر والصغائر من الخالفة الى البلغة الى الجريمة الى الجناية ؛ ولكنكم كلهما في القانون الأدبي سواء .

وقد يكون خطر العيوب الصغيرة أشد من خطر العيوب الكبيرة ، ذلك أن الكبيرة تشهر علينا حربا علنية فخافها ونحتاط لها . أما الصغيرة فتتكن ما خلسة وتلي غفلة منا ،

نحجم عن القتل بالسلاح وعن سرقة المال ، ولا نحجم عن القتل باللسان وعن سرقة
المجد المزيف .

وهكذا تنسج العيوب الصغيرة حولنا خيوطا رفيعة لانابه لما في بدء الأمر وتنتهي بأن
تكون اصمغادا من الحديد نزرع تحتها .

ويزيد في خطر هذه العيوب أنها قد تكون في ظاهرها أقرب الى الفضائل منها الى
الذائل ، بل أنها قد تتفقع بقذع الفضيلة ، فيبدو الفرور اعتدادا بالنفس ، والحيلاء ابناء ،
وحب الذات غيرة ، والغضب ثورة للكرامة ، والحسد تنافسا محمودا ، والفضول حب
استطلاع ، والثروة ذلافة لسان ، والتواكل توكلنا على الله .

وهذا ما يدعونا الى زيادة الحذر من العيوب الصغيرة لئلا تغزو قلوبنا وعواطفنا في هذا
المظهر الهين اللين فاذا تمكنت أصبحت عاتية مستبدة ، تفرض علينا إرادتها الدكتاتورية
من حيث ندرى ولا ندرى ، لأنه اذا كان يصعب على الانسان أن يرتقى من الفضائل
الصغيرة الى الفضائل الكبيرة فانه من السهل جدا أن ينزلق من العيوب الصغيرة الى
العيوب الكبيرة .

ونحن نألف عيوبنا النفسية كما نألف عيوبنا الجسمية ، فنعود لانابه لها ولا نشعر بها ،
ولكن الناس يشعرون ويزعجون ، وكثيرا ما يتألمون .

اخواني : أتم في مطلع الحياة ، تنشرون قلوبكم لريخ الأمل تدفعكم الى الأمام ،
ولكننا في عصر اشددت في خضمه العواصف العاصفة ونارت في جوه الأعاصير الهوجاء ،
ولا سبيل الى الثبات أمامها إلا إذا كان كل من في السفينة حذرا يقظا يؤدي واجبه على
الوجه الأتم .

وما أكثر واجباتنا في هذه الأيام ، حكاما وشعبا ، أفرادا وجماعات ، وأول واجبات
الشبان أن يكونوا مثقفين بالمعنى الحقيقي والمعنى المجازي ، أى قويمى الأخلاق مجملين
بجلى التهذيب .

فاذا شئنا أن نخدم بلادنا ، وأن نخدم عشيرتنا ، وأن نخدم أنفسنا ، فلنقبل على
الفضائل تجملا لا تفضلا ، ولنقلع عن العيوب تورعا لا تصمنا ، فأتم أيها الشبان النجباء
في عمر تستطيعون من هذا القليل ما تريدون ولكنكم ستتمرون الى عمر تريدون
ولا تستطيعون :

ولم أر في عيوب الناس عيبا كدقص القادرين على التمام

أنطون الجميل